لغة الحوار بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية

أ.د/ محمد السيد الجليند(*)

قراءة تاريخية تحليلية:

من المهم فى مثل هذه الدراسة الموجزة أن نحدد المعالم الأساسية التى كانت ـ ولا زالت ـ تحكم منهج الحوار مع الآخر. الحوار بين طرفين. مسلمين كانا أو أحدهما مسلماً والآخر غير مسلم ذلك أن تحديد هذه المعالم هو الذى يوضح لنا الفوارق الأساسية بين منهجنا فى الحوار مع الآخر ومنهج الآخر فى الحوار معنا. كما سيوضح لنا بطريقة عملية ركائز هذا المنهج من حيث أسلوبه وطريقته. ومن حيث الأهداف والمقاصد التى نسعى إليها من وراء هذا الحوار.

ومن الثابت تاريخياً أن الحضارة الإسلامية قد احتكت منذ فجر تاريخها بحضارات مختلفة ما بين حضارة يغلب عليها الطابع الروحى كالفارسية والهندية وأخرى يغلب عليها الطابع المادى كالحضارة اليونانية والرومانية والمصرية القديمة فأخذت من كل الحضارات ما رأته صالحاً ونافعاً وأضافت إليها وعدلت فى بعض مفاهيمها وتفاعلت مع كل هذه الحضارات أخذاً وعطاءاً تأثيراً وتأثراً. ولا ننسى أن الفلسفة الإسلامية

(*) مدير مركز الدراسات والبحوث الإسلامية جامعة القاهرة – أستاذ الفلسفة الإسلامية ـ دار العلوم

كانت أحد الروافد التى نقد خلالها عامل التأثير بالحضارات المختلفة ما بين هندية وفارسية ويونانية.

وكانت الفلسفة ـ الإسلامية ـ شأنها فى ذلك شأن فروع الثقافة الإسلامية الأخرى ومحكومة فى حوارها مع الفلسفات الأخرى بمجموعة من الضوابط العامة التى شكلت معالم هذا المنهج فى الأخذ عن الغير.

ماذا نأخذ؟ وكيف؟ ومتي؟ ولماذا؟ وهل الأخذ عن الآخر يقضى بالضرورة محو الشخصية الإسلامية والذوبان فى الآخر حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلناه، أم أن الأخذ عن الغير والتأثير به لا يلزم عنه بالضرورة إلغاء الأنا فى سبيل المحافظة على الآخر بل لا بد من المحافظة على الخصوصية والاحتفاظ بالهوية والذاتية ليظل الأنا هو الأنا بخصوصيته وهويته والآخر هو الآخر بمفاهيمه وملابساته وخصوصيته.

ضوابط عامة:

لقد تميز منهج الحوار الإسلامى مع الآخر خلال تاريخ الفكر الإسلامي بمجموعة من الضوابط التى جسدت الركائز الأساسية لهذا المنهج وحكمت أسلوبه ومقاصده وأهدافه ومن أهم هذه الضوابط:ـ

١ـ الحكمة ضالة المؤمن أني وجدها كان أحق بها. فيجب عليه أن يبادر بالتقاطها وتحصيلها والإفادة منها وشكر صاحبها عليها.

٢ـ أن لا يعرف الحق بالرجال وإنما يعرف الحق ثم يعرف أهله .

وهاتان القاعدتان تلقيان الضوء على أسلوب الحوار مع الآخر وكيف نتعامل معه. فلا نهتم بصاحب الرأى بقدر ما نصرف اهتمامنا وتأملنا إلى النظر فى الرأى نفسه تمحيصاً وتدقيقاً وهل هو من قبيل الحكمة فيقبله

المسلم ويشكر صاحبها عليها أم من قبيل العبثيات فيردها على صاحبها؛ ولا عبرة فى هذا الموقف بالشخص القائل أياً كان دينه أو ثقافته، ولونه وجنسه، ما دام القول فى ذاته حقاً والرأى حكيماً، فمحور التعامل مع الآخر هو النظر فى الأقوال والتأمل فى الآراء المجردة بصرف النظر عن مكانة أصحابها وانتمائهم الثقافى والحضاري.

٣ـ القاعدة الثالثة فى هذا المنهج تتمثل فى قوله تعالي: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}(الكهف: ٢٩) وهذه القاعدة ليست قاصرة على مجال الدعوة إلى اللّه بالأسلوب الدعوى المباشر فقط لأن كل دعوة إلى الحق فى أى مجال من مجالات المعرفة الإنسانية هى حلقة من حلقات الدعوة إلى اللّه. والمهم فى ذلك أن نقول الحق ولا نكتمه ما دام حقاً.

والساكت على الحق شيطان أخرس لأن السكوت عن قول الحق نوع من المهابة لأصحاب الباطل لأنه بذلك قد أفسح المجال أمام أصحاب القول بالباطل وفتح الباب لتعمية الناس وإضلالهم عن الحق قولاً وفعلاً وربما اعتقاداً.

٤ـ القاعدة الرابعة: أن يكون هذا الحوار تجسيداً للمبدأ القرآني: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥) وقد غاب الكثير عن أن هذا المبدأ ليس قاصراً على قضية الدعوة والدعاة حين قصروه على الدعوة بالمعنى الاصطلاحي؛ أنه مبدأ عام يشمل كل حوار ويرسم له حدوده ويبين ما يجوز وما لا يجوز. فإذا تخطى أسلوب الحوار هذا المبدأ القرآنى وتجاوزه فقد نقله

صاحبه من مجال الحوار المشروع إلى مجال آخر يرفضه الشرع شكلا وموضوعاً. لأن من ضروريات هذا المنهج مراعاة ظروف الناس ومخاطبتهم حسب مستواهم الفكرى والثقافي. ومن الثابت تاريخياً أن بذر الحكمة فى غير موضعها إضرار بها ومنعها أهلها إضرار بهم فمراعاة هذه الفوارق بين الناس من لوازم هذا المنهج.

٥ـ أن وظيفة الحوار لا تتوقف بالضرورة على هداية الطرف الآخر وقبوله للرأى الذى نراه فإن ذلك ليس باستطاعة البشر لأن هداية القلوب لتقبل الحق والانتفاع به والإدغان له أمر بيد الله وحده ولذلك فقد تكرر فى القرآن الكريم أن الهداية القلبية ليست من وظيفة الرسل ولكن الله يهدى قلب من يشاء متى قدم بين يدى الله أسباب هذه الهداية وحتى يرفع عن الرسول الإحساس بالحرج فى هذه القضية نجد القرآن يخاطب الرسول كثيراً بما يرفع عنه هذا الحرج قال تعالى ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢٢) ﴿إِنْ عَلَيْكَ إلا الْبَلاغُ﴾ (الشورى: ٤٨) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (القصص: ٥٦) ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (الغاشية: ٢١) وهذه الآيات الكريمة وإن كانت تتصل بقضايا العقيدة إلا أنها تعم كل أشكال الحوار بين المتحاوريين فإن التعرف على الحق بعد بيانه ووضوحه هو المدخل الطبيعى للاعتقاد فيه لأن الحق كل لا يتجزأ وإن تعددت أطرافه وتنوعت أشكاله.

٦ـ تحرى موقع العدل وتحقيق العدالة مع الآخرين حتى ولو كانوا أعداء لنا لأن العدل مطلب إنساني. قال تعالي: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (المائدة: ٨) فأمرت

الآية بوجوب مراعاة تقوى الله فى الخصوم وليس مراعاة هوى النفس وتحقيق الرغبات .

ولعل وضوح هذه الضوابط فى العقلية الإسلامية جعلهم متفتحين على كل الحضارات التى احتكوا بها بدون حساسيات ولا افتعال ولا مواقف ليس لها رصيد يؤيدها من مصادر الإسلام الأولى ـ الكتاب والسنة ـ ولذلك فقد اعتقدوا أن الأخذ عن الآخر والتأثر به قد يكون مطلباً شرعياً خاضعاً لأحكام الشرع وجوباً أو ندباً وبنفس الدرجة قد يكون رفض ما عند الآخر والتصدى له بل ومحاربته أحياناً مطلباً شرعياً خاضعاً لأحكام الشرع وجوباً أو ندباً. ومعيار ذلك كله خاضع للضوابط العامة التى أشرنا إليه آنفاً. ولعل من نافلة القول أن نشير هنا إلى أن هذه الضوابط تتسع دائرتها لتشمل كل العلوم النظرية والعلمية معاً. فما كان منها حقاً ونافعاً وجب قبوله وأصبح ذلك مطلباً شرعياً حتى ولو كانت هذه العلوم قد وفدت إلينا من الأمم الكافرة التى لا تدين بديننا لأن نظرنا فى ذلك يتوجه إلى العلم فى نفسه بصرف النظر عن صاحبه لأن الحكمة ضالة المؤمن ولذلك يجب عليه قبولها شرعاً سواء كان قائلها من أبناء ملتنا ويدين بديننا أم لا وقد أشار إلى هذا المعنى الفيلسوف المسلم ابن رشد فى كتابه (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) وفصل القول فيها المفكر المسلم ابن تيمية فى كتابه (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) فليرجع إليهما من أراد مزيداً من التفصيل فى هذا الشأن.

فى عصر الرسالة

ومبدأ الحوار مع الآخر أمر قد قرره الشرع سلفاً وآمر به القرآن الكريم على سبيل الوجوب أحياناً إذا كان يتصل بواجب شرعى فيكون من باب مالا يتم الواجب إلا به قهو واجب. وقد يكون على سبيل الندب أحياناً أخرى كوسيلة من وسائل التعرف على الغير ومدخل من مداخل الدعوة إلى الله.

وقد تحقق ذلك فعلاً وواقعاً فى حياة الرسول ﷺ على مستوى الأمر النظرى الوارد فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. كما تحقق على مستوى التطبيق العملى على يد الرسول ﷺ وبأمره لصحابته.

١- فعلى المستوى النظرى نجد القرآن الكريم يأمرنا بالحوار مع أهل الكتاب وفتح الجسور معهم خلال الحوار الهادف إلى بيان الحق وتوضيحه ودعوتهم إليه حرصاً على تحقيق الخير النافع للإنسان قال تعالي: ﴿قُلْ ياأَهْلَ الْكِتَاب تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ.. ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وفى مستوى تعليمى من مستويات الحوار يقول لهم ﴿ياأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّون فى إِبْرَاهِيم وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ والإِنْجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِه.. ﴾ (آل عمران: ٦٥).

ومن المعلوم تاريخياً أن التوراة والإنجيل إنما نزلتا بعد إبراهيم عليه السلام فليس من المتصور عقلاً أن يكون عند اليهود علم يقينى عن إبراهيم فيعتقدون صحته أو خطأه فكيف يجادلون فى أمر ليس لهم به علم..؟

وقال تعالى ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ۝ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ۝ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ۝ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ۝ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (سورة الكافرون)

ثم يأمرنا القرآن الكريم بمراعاة المستوى العقلى والحضارى لهذا الحوار مع الآخر فليس القصد منه مجرد إقناع الخصم أو التغلب عليه وإنما هو حوار بالحكمة ـ وبالموعظة الحسنة، وجدال بالتى هى أحسن وينهانا القرآن بأسلوب صريح وواضح لا يحتمل التأويل بألا نجادل أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن. وألا نحمل الإنسان كرهاً على اعتقاد أمر لا يقوم عنه دليل صحته ولا برهان صدقه فلا إكراه في الدين وروح القرآن الكريم تسرى بين آياته على هذا النحو صريح فى توضيح معالم المنهج القرآنى فى أسلوب الحوار ومقاصده وأهدافه، ولا بد أن يكون ذلك مشمولاً ومحروساً بقلب لين هين ولسان رطب عذب الكلمات حتى يؤتى الحوار ثمرته ويصل إلى تحقيق مقاصده ويجسد القرآن الكريم هذا المعنى فى خطابه للرسول المعلم فى قوله تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فى الأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وفى هذا المستوى النظرى التعليمى ينبهنا القرآن الكريم إلى قضية على جانب كبير من الأهمية فى ترقيق القلوب وترويض العقول. فلا نغمط أصحاب الحقوق حظهم حتى ولو كانوا يدينون بغير ملتنا ذلك أن الحق أحق أن يتبع وأولى الناس بذلك أصحاب الدعوات والمبادئ فالقرآن الكريم فى حديثه عن أهل الكتاب يفرق لنا بين نوعين منهم فإذا كان فيهم الظالم

والمكابر والمعاند فإن فيهم أيضاً المنصف والعادل وأصحاب المرؤة والحريص على الوفاء بالوعد فلا ينبغى ان نصدر حكماً عاماً يشمل الظالم والعادل والمنصف وصاحب الهوى قال تعالى ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ۞ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران: ١١٣-١١٤) وقال فى آية أخرى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا... ﴾ (آل عمران ٧٥) وقال سبحانه فى حق النصارى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة: ٨٢) ـ هذه آيات ـ وفى القرآن غيرها كثير ـ نتعلم منها معالم المنهج القرآنى فى الحوار مع الآخر فلا نغمطهم حقهم إذا كان لهم حظ فى ذلك كما قال سبحانه ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (المائدة: ٨) هذه معالم عامة ومجملة ترشدنا إليها آيات القرآن الكريم لنتخذها مبادئ لحوارنا مع الآخر على مستوى الفكر والكلمة.

١ـ أما على المستوى التطبيقى العملى نجد أن حياة الرسول ﷺ كانت المثل والقدرة فى رسم معالم هذا المنهج فى التعامل مع الآخر نصرانياً كان أو يهودياً أو مجوسياً. حيث كان صلى الله عليه وسلم يوضح فى أمره أو نهيه أو فعله المعنى المقصود لأصحابه والهدف المنشود من التعامل مع الآخر والحوار معه.

ومن الثابت تاريخياً أن أول هجرة للمسلمين من مكة طلباً للحماية وأملاً فى الجوار الآمن. كانت إلى الحبشة. وكان ملكها النجاشى نصرانياً وأوضح الرسول ﷺ لصحابته هذا المعنى النبيل الذى اختار لأجله الهجرة إلى الحبشة دون غيرها فقال لصحابته اذهبوا إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم أحد عنده فإن العدل الذى افتقده المسلمون الأوائل فى مكة جعلهم يطلبونه عند النجاشى النصرانى هرباً من الظلم الذى حاق بهم فى بلدهم مكة فخرجوا منها سراً طلباً للعدل وهرباً من الظلم وكان النجاشى هو ذلك الملك العادل الذى كفل لهم الحماية من بطش طواغيت مكة ولم يجد الرسول فى ذلك شيئاً من الحساسية التى قد يظنها البعض من أصحاب النظرة القاصرة عائقاً تحول دون التعامل مع النجاشى بدعوى أنه غير مسلم فكيف نلجأ إليه ونطلب الحماية منه ولم يدر ذلك بخلد الرسول أبداً ولم يرفضه أحد من صحابته بدعوى أنه نصرانى والذى قرأ ذلك الحوار الرائع الذى أجراه النجاشى مع المهاجرين يدرك تماماً عظمة الرسول فى ذلك الاختيار للنجاشى ليكون هو النموذج للملك العادل الذى يحتمى عنده حملة لواء الدعوة الإسلامية فى أول عهدها فلقد أبان هذا الحوار الذى أجراه مع المهاجرين بزعامة جعفر بن أبى طالب فإن من يدرك طبيعة الأسئلة التى كان يطرحها النجاشى على الصحابى الجليل جعفر بن أبى طالب والإجابات التى كان يسمعها منه يعلم تماماً أن الحوار الذى دار بينهما كان نموذجاً رائعاً فكراً وثقافة وحضارة. لأن الإنصاف ونشدان الحق كان هدفاً للجميع حيث كان الحق مقصده وهدفه. وليس التعصب والمعاندة والمكابرة ولذلك فقد شرح الله صدر النجاشى للإسلام ومات مسلماً وقيل إن الرسول ﷺ لما علم بوفاته صلى عليه وأمر أصحابه بالصلاة عليه وقال لهم:

«صلوا على أخ لكم مات بأرض الحبشة أو كما قال صلى اللّه عليه وسلم»[1].

هذا الموقف يعد نموذجاً لكيفية التعامل مع الآخر لأن الطرفين كان الحق رائدهما والهدف النبيل غاية لهما، فكان حب النجاشي للعدل وكراهيته للظلم دافعاً لأن يأمر الرسول صحابته بالهجرة إليه دون غيره، وفي سبيل ذلك قد تحمل المهاجرون كثيراً من المصاعب والمشاق لينعموا بالعدل المفقود في بلادهم ولم نسمع من واحد من المهاجرين أن تردد في تنفيذ الأمر بالهجرة إلى النجاشي بدعوى أنه نصراني أو أنه غير مسلم.

٢ـ ومن الثابت تاريخياً أن الرسول ﷺ قد اتخذ دليلاً له في هجرته إلى المدينة «ابن أريقط» ولم يكن مسلماً.

٣ـ وأنه قبل الهدية من المقوقس عظيم الأقباط في مصر وكانت هذه الهدية هي (مارية القبطية) التي بنى بها وأنجب منها ولده إبراهيم ولم يرفض الرسول هذه الهدية بدعوى أنها جاءته من غير المسلم بل تقبلها قبولاً حسناً وأوصى بأقباط مصر خيراً.

ومن الثابت تاريخياً أن الرسول ﷺ قد مات ودرعه مرهونة عند يهودي نظير دين له ومن يتتبع سيرة الرسول وصحابته سيجد كثيراً من المواقف النموذجية لأسلوب راق من التعامل اليومي مع غير المسلمين بلا حساسيات ولا تعصب ولا تحامق وكان هذا الأسلوب الرفيع في التعامل

---

(١) راجع زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم ١/٤٥ ط الحلبي بمصر= =بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله وقدوة للغير لكى يتأسى بهم فى ذلك كما قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١).

فى العصرين الأموى والعباسي:

ولقد تطور أسلوب الحوار ومنهجه فى عصر بنى أمية من حيث المقاصد والغايات من جانب ومن حيث المنهج والأسلوب من جانب آخر.

وتشهد أسباب نشأة علم الكلام عهداً جديداً للحوار مع الآخر يختلف فى طبيعته وخصائصه عن عصر النبوة والخلافة الرائدة ذلك أن اعتناق شعوب كثيرة للإسلام مختلفة فى ثقافتها وحضارتها مختلفة فى الملل والأديان التى تركتها قد فتح مجالات كثيرة لنوع آخر من الحوار يختلف فى مقاصده ووسائله عن ذى قبل.

فالعقيدة الإسلامية بمسائلها وأركانها قد تطرقت إليها سهام التشكيك والنيل منها لأهداف معروفة ومدونة فى كتب علم الكلام وتاريخه، ونشأ فى ظل ذلك المناخ حركة جدلية عنيفة تعبر عن أزمة الخصومة بين مفكرى الإسلام وأهل الملل الأخرى أحياناً وأهل النحل الباطلة فى دائرة الحضارة الإسلامية أحياناً أخرى ولعل قراءة سريعة لعناوين المباحث المدونة فى كتب علم الكلام تقفنا على طبيعة هذا الحوار وعنف هذه الخصومة فلا يخلو كتاب من كتب علم الكلام من الرد على الثنوية والمجوس والقدرية والدهرية والنصارى واليهود والفلاسفة الملاحدة .. وهذه كلها تمثل جبهات أشبه بجبهات الحرب المعلنة ضد الإسلام فى عقيدته وشريعته والموضوعات التى مثلت هذه المعارك شملت مسائل العقيدة الإسلامية كلها

فجرى الجدال حول اللّه ذاته وصفاته، القدر، النبوة والوحي، اليوم الآخر ومسائل البعث، كما تناول قضية المعرفة وسائلها وحدودها.

ولقد أدرك مفكروا الإسلام الأوائل الهدف المقصود من هذه الحملة فحشدوا لها جهدهم الفكرى والعقلى وقصدوا لها تفنيداً وإبطالاً بالحجج والبراهين حفاظاً منهم على بقاء العقيدة الإسلامية نقية سليمة من التشويش والتلبيس، وهم فى سبيل ذلك لم يكتفوا فى حوارهم مع الآخر بالوقوف عند حدود النص كتابا أو سنة وإنما استعاروا من خصومهم نفس الأسلحة التى بارزوهم بها فاستعملوا البرهان المنطقي وقياس الطرد والعكس وبرهان الخلف والإلزام، ولم يروا فى ذلك حرجاً ولا مذمة شرعية أو عقلية لأن ذلك حق فى نفسه بصرف النظر عمن قاله أو إلى من ينسب وما دام هو حقاً فى نفسه فلا ضرر عليهم فى ذلك من قبوله والتعامل به مع خصومهم ووضعت فى ذلك مؤلفات مستقلة تحمل عنوان «الرد على النصارى» «إفحام اليهود»، «الجواب الصحيح»، «هداية الحياري» أو كانت رداً على المخالفين فى النحلة وإن وافقوا فى الملة. مثل الرد على الجهمية، الرد على المعطلة الخ. وكل هذه المؤلفات ما تأثر منها بالرافد الثقافى وما لم يتأثر كان هدفها واضحاً وصريحاً وتمثل ذلك فى أمرين:

١ـ الدفاع عن العقيدة الإسلامية والخوف عليها من التشويش والتشكيك.

٢ـ والحفاظ على الهوية الإسلامية والخصوصية العربية من الذوبان والتلاشى وكان إصرارهم على هذين الأمرين عاملاً مهماً فى الحفاظ على خصوصية الحضارة الإسلامية وهويتها.

وفى نطاق الفلسفة الإسلامية ـ خاصة المشائية ـ نجد أن كبار مفكريها قد تأثروا بالفلسفات السابقة عليهم فأخذوا من اليونانية والأفلوطينية الحديثة واستعاروا من الغنوص المسيحى وخاصة بعد عصر الترجمة من اليونانية والفارسية وأثنائها ومن الثابت تاريخياً أن الفارابى تعلم فى مدارس حران على يد إبراهيم قويرى. النصراني. وابن سينا لم يفهم أرسطو إلا من خلال الفارابى وابن رشد عرف بالشارح الأكبر لأرسطو ورغم هذا التأثر الواضح بالفلسفة اليونانية ومفاهيمها إلا أنهم جميعاً كانوا عرباً يعتزون بعروبتهم مسلمين يدينون بالولاء والاعتزاز بإسلامهم فابن سينا وهو من أكثر فلاسفة الإسلام تأثرا باليونانية يصرح بأن هذا الدين ـ الإسلام ـ قد اعترف بجلالته حكماء العالم قاطبة وكذلك من قبله الفارابى ومن بعده ابن رشد. فلم يتنكروا لعروبتهم ولا لدينهم وإنما كان ذلك مصدر اعتزاز لهم جميعاً ومصدر فخر يعتزون بانتمائهم إلى العروبة وإلى الإسلام ديناً.

ولقد شهدت هذه الفترة أكبر حركة فى النقل والترجمة من اليونانية والفارسية إلى اللغة العربية وأن هذه الحركة التى لم يشهد التاريخ مثلها قد تمت فى حراسة المبدأ الشرعى «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها كان أحق بها» ولا شك أن ما تم ترجمته خلال هذه الحركة كان منه ما يخضع للمبدأ السابق وكان منه ما يشذ عنه ولذلك كانت استجابة العقلية الإسلامية للمترجمات مختلفة ومتنوعة فما كان منها خاضعاً لهذا المبدأ السابق قبلوه وانتفعوا به وحمدوا صاحبه، وما كان منها شاذاً عنه رفضوه ونبهوا إليه وحذروا منه ولذلك سرعان ما تميز عندهم الأعمال المترجمة التى تدخل تحت مفهوم الحكمة فقبلوها وتواصوا بها ونادوا بضرورة تعلمها وتعليمها كالطبيعات والرياضيات وعلوم الفلك والهندسة والطب والكيمياء

ونبغ فى هذه العلوم مجموعة من كبار العلماء العالميين الذين ما زالت البشرية تدين لهم بالفضل والسبق فى هذه العلوم إلى يومنا هذا واعتقد أن الموقف الذى نحن بصدده غنى عن الشرح وضرب الأمثلة وذكر الأسماء التى تذخر بها معاجم هذه العلوم موضحاً دور المسلمين فيها. فكلنا على علم به وبالعلماء الأجلاء الذين رادوا هذا الطريق كابن الهيثم وابن النفيس والرازى وأيضا ابن سينا الطبيب وابن رشد الطبيب والخوارزمى وجابر بن حيان إلخ.

أما مجموعة العلوم الأخرى التى لم يجد فيها المسلمون مضموناً عقلياً مقنعاً ولا يندرج تحت مفهوم الحكمة ضالة المؤمن أنى وحدها كان أحق بها فكان للعقلية الإسلامية منها موقف مختلف عن سابقه ويتدرج تحت هذا النوع من العلوم ما تقل عن اليونان من المفاهيم والآراء حول الله. والكون. والإنسان. والميتافزيقا فقد كان الخطأ فيها أكثر من الصواب كما صرح بذلك الغزالى فى تهافت الفلاسفة والمنقذ من الضلال ولذلك تحفظ المسلمون فى قبولها وحذروا من الكثير منها وأرى أن التنبه إلى الفرق بين موقف المسلمين من مجموعة العلوم الثانية مهم جداً بل ضرورى . خاصة فى زماننا هذا الذى اختلطت فيه الأوراق. والتبست المفاهيم على العقول. فلم تفرق بين الأسود والأبيض عن قصد أو غير قصد. مما جعل المثقف المعاصر يعيش حياته العقلية فى دائرة مغلقة لا يدرى من أين يبدأ وإلى أين ينتهي. فإن الذى اهتم به المسلمون وتواصوا به هو مجموعة العلوم التى يمكن أن تسمى بلغة عصرنا علوم التكنولوجيا والتقنينات التى هى محور التقدم والتخلف الآن. والتى كان انتقالها إلى أوروبا بمثابة الشعلة التى أضاءت لها ظلمات عصرها وأخرجتها من كهف التخلف والخرافة إلى نور العلم والمدنية. كانت هذه العلوم بمثابة الكنز الثمين الذى اكتشفه المسلمون وقدموه للعالم

فأنار لها الطريق إلى ريادة عصر جديد لم يكن للبشرية عهد به وهو المسمى بعصر النهضة. وإذا كان دور المسلمين واضحاً فى حوارهم مع الآخر خلال هذه المجموعة من العلوم العلمية والتى تسمى بلغة عصرنا علوم التكنولوجيا والتقنيات فإن دورهم خلال مجموعة العلوم الأخرى ـ وأقصد بها العلوم الحكمية ـ الفلسفية ـ ليس أقل من ذلك. بل كان عطاؤهم فيها واضحاً وسأضرب لذلك مثلاً واحداً بفيلسوف قرطبة ابن رشد ودوره فى بعث النهضة الأوربية. وابن سينا وكتابه (القانون فى الطب) وابن النفيس والرازى والخوارزمى وابن الهيثم وابن حيان وغيرهم كثير فى مجالات شتي. مما لا يتسع المقام لذكره هنا.

ومن الجدير بالذكر أن ننبه هنا إلى أن الحوار الذى امتد عبر قرون طويلة بين الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات الأخرى كان يتميز بالندية فى الأخذ والعطاء. ومن المعروف أن الحضارة الإسلامية فى هذه المرحلة كانت هى الأقوى وهى المنتصرة لكنها لم تسمح فى حوارها مع الغير أن تكون لغتها فوقية استعلائية بحيث تشعر الآخر بالدونية كما هو حاصل فى الحضارة الغربية الآن وكما هو شأن المتحدثين باسمها والداعين إلى تبنيها والنسج على منوالها.

كانت الحضارة الإسلامية أبان انتصاراتها تتلمس مواطن العلم النافع عند الغير فتفيد منه وتدعو إليه وتبحث عن الفكرة الصحيحة تتبناها وتتمثلها فى الحياة اليومية العلمية، وقد تعيد إخراجها إلى الناس فى ثوبها الإسلامى الجديد وفى لغتها العربية الواضحة، وفى روح قرآنية متسامحة تعم بتسامحها البلاد التى خضعت لسلطانها ثقافياً وحضارياً. ولعل فى

حضارة المسلمين في أسبانيا غرباً وفى تركيا شمالاً وفى بلاد فارس والهند شرقاً خير دليل على ذلك.

ولقد تجلت روح هذه الحضارة فى أمرين مهمين جداً يتصل كل منهما بالحوار مع الآخر فى منهجه وفى أهدافه ومقاصده.

الأمر الأول: الروح الإسلامية العامة التى تبناها الفكر الإسلامى ودعا إليها فى فلسفته للعلوم العلمية. التى نقلها العرب عن الغير وفى تحليلهم لهذه العلوم وتفسيرهم للعلاقات المتبادلة بين الأسباب والمسببات فالأسباب عندهم فاعلة كما أخبر بذلك القرآن الكريم فى أكثر من آية وأكد عليها.

قال تعالى ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ منَ السَّمَاءِ مَاءً فأَنْبتْنا به حَدَائِق ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لكُمْ أنْ تُنْبِتُوا شَجرَها﴾ (النمل٦٠) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزلَ منَ السَّمَاءِ مَاءً فأَخْرجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شيْءٍ.. ﴾ (الأنعام ٩٩)

وقال سبحانه: {يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْع والزَّيْتُون والنَّخِيل والأعْنَابَ}(النحل: ١١) كل هذه الآيات وغيرها كثير فى القرآن الكريم يتحدث عن الأسباب الطبيعية فى الكون فالآيات هنا تتحدث عن العلاقات السببية. وهذه الباء (به) هى باء السببية كما هو معروف فى اللغة ونحوها. وكذلك يتحدث القرآن عن الأسباب الإنسانية فى أفعال الإنسان نفسه ليضع الإنسان فى مواجهة مباشرة مع مسئوليته عن فعله قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْس بِمَا كَسَبَتْ رهِينَةٌ﴾ (المدثر: ٣٨). ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرا يرَهْ۞ ومَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧-٨) وإيمانهم بارتباط الأسباب بمسبباتها فى الأفعال الطبيعية وثبات هذه العلاقة واطرادها لم يمنعهم من الإيمان بأن الأسباب ليست فاعلة بذاتها وإنما

بفعل اللّه فيها. وقد منح اللّه هذه الأسباب قوة التأثير وثبات هذه القوة واطرادها ليستقر نظام العالم وتكون له صفة الثبات والاطراد ولم ير المسلمون تناقضاً عقلياً بين الإيمان بفعل الأسباب والإيمان بأمر مصدر هذه القوة الفاعلة هو اللّه وليست الأسباب بذاتها.

لأن ذلك لا يحمل معنى التناقض العقلى كما يتوهم ذلك البعض ولا يدعو ذلك إلى التنكر للعلم بل يدعو إلى الإيمان والأخذ بنتائجه. وتفصيل القول فى ذلك له مقام آخر.

أما الأمر الثاني: الذى تميزت به لغة الحوار هو حسن توظيف المسلمين للعلم ونتائجه والإفادة من معطياته وتسخيرها لخدمة الإنسان وتأمين حاضره ومستقبله. وذلك أن قضية استخلاف الإنسان فى الأرض يرتبط بها مباشرة حسن تسخير الكون واكتشاف قوانينه والعمل على عمارته وتسخير ذلك كله فى النهاية لخدمة الإنسان، كما قال تعالي: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فى الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٢٩). ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فى السَّمَوَاتِ وَمَا فى الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣).

ولقد ترتب على سيادة هذه الروح العامة وسيطرتها على لغة الحوار مع الآخر فى فلسفة العلم وفى حسن توظيفه أن نعمت البلاد التى فتحها المسلمون شرقاً وغرباً بهذا الوافد الجديد، ولم يقف أمامهم إلا صاحب ملك يخاف على سلطانه أو صاحب هوى متسلط على الغير وهذا الأمران هما محور الخلاف ومحك الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية بين فلسفة الإسلام للعلم وحسن توظيفه وفلسفة الغرب للعلم وسوء توظيفه. وبالتالى فهما يفسران لنا جوهر الصراع بين الحضارتين، نعم هنا بؤرة

الصراع بين الحضارتين. فلسفة العلم وتحليله وحسن توظيفه. لقد ظلت الحضارة الإسلامية تظلل العالم بروحها المؤمنة قروناً طويلة حفرت خلالها خصائص هذه الحضارة بأحرف من نور فى شتى بقاع العالم الذى حلت فيها. فى فارس والهند شرقاً وفى بلاد الشام وأوروبا شمالاً وفى الأندلس وشمال أفريقيا غرباً ونشرت فى ربوع هذه البلاد قيماً ومعانى نعم بها أهلها فترة طويلة من الزمان. فعرفوا التسامح والعدل والإنصاف بعد أن شقوا أزماناً طويلة بالظلم والتعصب والطغيان.

التحول فى لغة الحوار

أُفُولٌ هنا وازدهار هناك:

ثم دار الزمان دورته، وأخذ الغرب بعلمائه ومفكريه يتشرب روح هذه الحضارة ويتعلم منها، وأخذت مقاليد الأمور تنتقل رويداً رويداً من أيدى المسلمين إلى غيرهم، وأخذ نجم الحضارة الإسلامية فى الأفول ليحل محلها حضارة جديدة بروح جديدة تختلف فى فلسفتها للعلوم وتوظيفها للعلم عن الحضارة الإسلامية، وواكب ذلك التحول الحضارى ظهور أنماط جديدة من القيم الاجتماعية والثقافية فى أوروبا، فلقد تحولت المسيحية على يد مجموعة من ملوك أوروبا وعلمائها إلى روح صليبية لا تمت بأى سبب إلى النصرانية التى نزلت على عيسى عليه السلام ولا يربطها رابط بتعاليم المسيح عليه السلام، فالمسيحية التى بشر بها عيسى عليه السلام، حب، وتسامح، وتواضع، وسكينة نفس، أما الصليبية الجديدة فهى حقد وتعصب واستكبار وطغيان، ولقد تجسد هذا التحول الخطير الذى طرأ على المسيحية فى مجموعة من الحملات الصليبية التى بدأ بها الغرب حروبه الصليبية على العالم الإسلامى فى العصور الوسطى والتى ما زالت نيرانها لم تطفأ بعد مع تعدد الأشكال وتنوع الحملات، ولعل ما يجرى فى البوسنه والهرسك فى وقتنا الحاضر من حروب التصفية والإبادة الجماعية للمسلمين والتواطؤ العالمى مع الصرب وضد المسلمين وما يقوم به الروس فى الشيشان أقول لعل فى ذلك كله دليلاً على أن هذه الحروب الصليبية لم تخمد نارها بعد رغم اختلاف أشكالها وتنوع حملاتها وتعدد مواقعها.

استطاعت أوروبا أن تحتل معظم البلاد العربية والإسلامية خلال القرنين الماضيين وأن تفرض سلطانها الثقافى ومفاهيمها الحضارية على المؤسسات الثقافية فى البلاد التى احتلها. فأخذت المفاهيم الأوربية فى الفلسفة والاجتماع والتاريخ والاقتصاد والقانون والتربية وعلم النفس تحل محل المفاهيم الإسلامية التى كانت سائدة فى هذه البلاد. وأرادت أوروبا أن تجعل من هذه المفاهيم ـ وهى محلية إقليمية ذات صبغة خاصة ـ مفاهيم عالمية ينبغى أن تذعن لها عقول جميع المفكرين شرقاً وغربا وبمنطلق فوقى استعلائى استعمارى متكبر. ولجأت إلى أساليب رخيصة لفرض هيمنتها الثقافية على عقول البلاد التى استعمرتها لبسط نفوذها الثقافى ورفعت سلاح التشهير بكل من عارضها أو قاوم نفوذها الاستعمارى ومن حقنا أن نشير هنا إلى بعض المقارنات بين لغة المسلمين فى حوارهم مع الآخر يوم أن كان المسلمون أصحاب الكلمة الحضارية فى العالم ولغة الآخر فى حواره معنا الآن. بعد أن انتقلت لغة الحوار إلى أرضهم.

١ـ إن لغة الحوار الإسلامى كانت هى الكلمة الرشيدة ﴿ادْعُ إِلَى سبيل ربّك بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ ولِيَ دين﴾ ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾. أما لغة الآخر مع المسلمين فكانت هى الرصاص. والصاروخ والمدافع.

٢ـ كانت لغة المسلمين حضارية فى الأسلوب والمنهج. تحرير العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. أما لغة الآخر فكانت القتل والتنكيل والحرق والإبادة.

كانت لغة المسلمين تملأ الأرض عدلاً «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا» أما لغة الآخر فكانت تجسيداً للظلم والطغيان.

٣ـ كانت لغة المسلمين تشع بالرحمة والسكينة والود والإخاء «لكم مالنا وعليكم ما علينا» أما لغة الآخر فكانت مملوءة بالقسوة والعنف والاستكبار والاستعلاء.؟

ولا يتسع المقام هنا للتفصيل فى بيان ذلك. ولكن اكتفى هنا بأن أدعو دعاة التغريب فى بلادنا أن يراجعوا أنفسهم ليدركوا الفرق بين لغة الحضارتين فى الحوار ومن خلال النظرة المقارنة البسيطة بين ما فعلته أوروبا فى العالم أبان ما يسمى بعصر النهضة وحتى الآن. يتبين لنا مجموعة من الحقائق التى يؤكدها التاريخ.

١ـ فإذا كان ثوار أوروبا قد حرروا الفلاح هناك من رق العبودية فقد سلكوا عشرات الملايين فى أفريقيا والهند فى سلم العبودية والرق.

٢ـ إذا كانوا قد رفعوا شعار الحرية فى بلادهم فقد حكموا بالعبودية على الملونين فى قارات العالم.

٣ـ إذا كانوا قد رفعوا شعار الديمقراطية فى بلادهم فقد أحكموا قبضة الدكتاتورية الغاشمة على شعوب العالم الثالث. فاستغلوا شعوب ونهبوا ثرواته، وأصبح العالم فى ظل هذه الحضارة أشبه بالغابة التى لا تسمح بالعيش فيها إلا للأقوياء وترتب على ذلك أن سادت المفاهيم والفلسفات الغربية وأصبح العلم فى لغة الحضارة الأوربية يختلف فى فلسفته التحليلية وفى توظيفه عن فلسفته وتوظيفه فى لغة الحضارة الإسلامية فانقطع مسار العلم فى فلسفته هناك عن خالقه وتحولت وظيفته من خدمة الإنسان إلى خدمة طائفة معينة وقليلة على حساب بقية شعوب العالم كله ولما ازدهرت فى أوروبا عوامل نهظتها وتراجع زحفت الحضارة الإسلامية تبدلت لغة

الحوار بين الشرق والغرب فى الأسلوب والمنهج. وفى الأهداف والمقاصد. وفى مطلع القرن العشرين وبعد أن احكمت أوروبا قبضتها على العالم الإسلامى أعلن مفكروها ما كان يدور بينهم فى الخفاء وصرحوا بما كانوا يضمنونه للعالم الإسلامى ولن أذهب بعيداً فى توضيح هذه القضية التى لا تحتاج إلى اجتهاد أو أعمال ذهن وإنما سأقتبس بعض النصوص لكبار المفكرين فى أوروبا فى مطلع هذا القرن وسوف توضح لنا هذه النصوص لغة الغرب فى حواره معنا وأهدافه ومقاصده من محاورتنا. يقول المفكر الفرنسى هانوتو: بعد احتلال فرنسا للجزائر مباشرة: لقد أصبحنا اليوم أمام الإسلام والمسألة الإسلامية وجها لوجه. وكانت هذه العبارة عنواناً لمقال كبير نشر مترجما بالعربية فى جريدة المؤيد المصرية وتولى الرد عليه جمال الدين الأفغانى فى رسالته الرد على الدهريين ومما جاء فى هذا المقال: إنه لا يوجد مكان على ظهر الأرض إلا واجتاز الإسلام فيه حدوده منتشراً فى الآفاق فهو الدين الوحيد الذى أمكن انتحال الناس له رمزاً وأفواجاً وهو الدين الوحيد الذى يفوق شدة الميل إليه والتدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه إن هذا الدين قائم الدعائم ثابت الأركان فى أوروبا عينها.

ثم يقول: «لقد صارت فرنسا فى صلة مع الإسلام فى كل مكان بل صارت فى صدر الإسلام وكبده ليس الإسلام فى داخلنا فقط بل فى خارجنا أيضاً قريب منا فى مراكش قريب منا فى طرابلس الغرب قريب منا فى مصر.. ولا يزال الهلال الإسلامى ينتهى طرفاه من جهة مدينة القسطنطينية ومن جهة ببلدة فاس فى المغرب الأقصى معانقاً بذلك الغرب كله ..إن هذا الدين القائم فى الاستانة حيث عجزت المسيحية عن استئصاله من هذا الركن المنيع الذى يحكم منه على البحار الشرقية ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض شطرين أنه لا بد من العمل إلى تفكيك تلك

الرابطة التى تجمع بين المسلمين شرقاً وغرباً على سطح المعمورة فتجعل منهم أمة واحدة وهو رابطة الدين. لا بد من العمل على اضعاف تلك الروح التى تحرك المسلمين من سباتهم إن رابطة الإخاء الجامعة بين أفراد المسلمين شرقاً وغرباً كفيلة بأن تجعل المسلم فى شرق الأرض يهب لنصرة المسلم فى غربها فهى عامل مؤرق لفرنسا فى المستعمرات التى تخضع لها».

هذا النص يحمل فى كلماته ومقاصد الغرب كله من حواره معنا ليست فرنسا وحدها: وليس هانوتو إلا واحد من المشتغلين بحوار الغرب مع الشرق. قد تختلف العبارة والأسلوب أما الهدف والمقصد فكان ولا يزال محل اتفاق بينهم جميعاً ولقد أشار الإمام محمد عبده إلى هذا الخطر الاستعمارى المحدق بالمسلمين فى مطلع هذا القرن وحذر مما يبيت للمسمين فى الخفاء ويحاك لهم فى العلن حين قال:

إن الإفرنج تأكد لهم أن أقوى رابطة بين المسلمين إنما هى الرابطة الدينية. وأدركوا أن قوتهم لا تكون إلا بالعصبية الاعتقادية. ولأولئك الإفرنج مطامع فى ديار المسلمين وأوطانهم. فتوجهت عنايتهم إلى بث هذه الأفكار الساقطة بين أرباب الديانة الإسلامية، وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها. لينقضوا بذلك بناء الملة الإسلامية ويمزقونها شيعاً وأحزاباً. فإنهم علموا كما علمنا. وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا فى دينهم واعتقادهم وتسنى للمفسدين نجاح فى بعض الأقطار الإسلامية. وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلاً وتقليداً فساعدهم على التنفير من العصبية الدينية بعد ما نقدوها ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس (الوطنية) التى يبالغون فى تغطيتها واحترامها حمقاً منهم

وسفاهة. فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيء لنفسه مسكناً سواه فنذر للإقامة بالعراء معرضاً لفواعل الجو وما تصول به.

هذا الأسلوب من السياسة الأوربية أجادت الدول اختياره، وجنت ثمارها فأخذت بين الشرقيين لتنال مطامعها فيهم. فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل فى البلاد العثمانية والمصرية وغيرها من الممالك الإسلامية. ولم تعدم صيدا من الأمراء والمنتسبين إلى العلم والمدنية الجديدة. واستعملتهم آلة فى بلوغ مقاصدها من بلادهم. وليس عجباً من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الإسلام أن يميلوا مع هذه الأهواء الباطلة ولكنا نعجب من أن بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم فى إيمانهم يسفكون الكلام فى ذم التعصب الديني. ويجهرون فى رمى المتعصبين بالخشونة. والبعد عن معدات المدنية الحاضرة. ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ويفسدون شأنهم. ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المارقين. يطلبون محو التعصب المعتدل، وفى محوه محو الملة ودفعها إلى أيدى الأجانب يستعبدونها ما دامت الأرض أرضاً والسماء سماءً واللّه ما عجبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الأمم الإفرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الأفكار بين الشرقيين، ولا يخجلون من تبشيع التعصب الدينى ورمى المتعصبين بالخشونة، والإفرنج أشد الناس فى هذا النوع من التعصب وأحصرهم على القيام بدواعيه[1] ومن القواعد الأساسية فى حكوماتهم السياسية الدفاع عن

---

(١) راجع فى التعرف على موقف محمد عبده من الحضارة الأوربية الكتاب التذكارى الذى أعده المجلس الأعلى للثقافة. النصوص المختارة: النص الخاص بالتعصب. فإنه يوضح للقارىء موقف الإمام محمد عبده بوضوح

دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم . هذا الهدف المعلن صراحة من حوارهم معنا بلا خجل ولا التواء.

أن من حقنا تاريخياً وحضارياً أن نطلب المقارنة بين أهداف ومقاصد حوارنا مع الغرب يوم أن كانت الحضارة الإسلامية تظللهم بروحها السمحة ومقاصدها النبيلة ومقاصدهم وأهدافهم من حوارهم معنا الآن، أليس من حقنا أن نقارن بين ما فعله عمر بن الخطاب يوم أن دخل بيت المقدس وكتب معاهدة الصلح بينه وبين الروم وما تفعله الصليبية المعاصرة معنا الآن؟ ألم يطلب عمر من الجنود ألا يهدموا كنائسهم ولا معابدهم؟ أليس من حقنا أن نقرأ آداب الجهاد فى الإسلام وكيف كان الرسول يوصى صحابته ألا يقتلوا شيخاً هرماً ولا إمرأة ولا طفلاً ولا يحرقوا بيتاً ولا زرعاً ولا مستأمناً ونقارن هذا بما فعلته فرنسا المتحضرة فى الجزائر يوم أن كتب هانوتوا هذا المقال مبيناً أهدافه من حواره مع المسلمين..؟

وإذا كان هذا هو موقف هانوتو وأهدافه من حواراته مع الإسلام فى مطلع هذا القرن. فماذا كان حظ أصحاب الحوار بالكلمة فى المؤتمرات العديدة التى عقدت خصيصاً بقصد احتواء العالم الإسلامى شرقاً وغرباً؟ لقد عقد مؤتمر فى القدس سنة ١٩٣٥ تحت حماية بريطانيا وبرئاسة المستشرق زويمر الذى افتتح المؤتمر التبشيرى بخطبته التاريخية التى جاء فيها: أيها الأخوة الأبطال الذين كتب الله لهم الجهاد فى سبيل المسيحية واستعمارها

من هذه القضية. وهو موقف منصف ويتناقض تماماً مع رأى الذين يتمسحون بفكر محمد عبده ويجعلونه علمانياً ورائد للتنوير حسب مفهومهم الخاص.

لبلاد الإسلام فاحاطتهم عناية الرب... لقد أديتم الأمانة التى نيطت بكم أحسن أداء إننى أقركم أن الذين دخلوا المسيحية من المسلمين ليسوا مسلمين حقيقيين لقد كانوا كما قلتم أحد الثلاثة. إما صغير لم يجد من أهله من يعرفه الإسلام. أو رجل مستخف بالأديان لا يهتم إلا بقوته ولقمة العيش. أو ثالث يبغى الوصول إلى مصلحة شخصية وأن المهمة التى ندبتكم لها دول المسيحية فى البلاد المحمدية ليست هى إدخال المسلمين فى المسيحية فإن هذا هداية وتكريماً لهم وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من دينه ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله وبالتالى لا صلة له تربطه بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى بناء حياتها وبهذا تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعمارى فى البلاد الإسلامية وهذا ما قمتم به فى المائة عام الماضية خير قيام وهذا ما أهنئكم وتهنئكم عليه المسيحية لقد قبضنا أيها الأخوان خلال هذه الحقبة من الدهر على جميع برامج التعليم فى المماليك الإسلامية ونشرنا فى ربوع تلك البلاد الكنائس والمدارس المسيحية التى تهيمن عليها دول أوروبا وأمريكا. أيها الزملاء لقد أعددتم فى بلاد المسلمين شباباً لا يعرفون الصلة بالله ولا يريدون أن يعرفوا وأخرجتم بعضهم من الإسلام ولم تدخلوه فى المسيحية وبالتالى جاء النشىء طبقاً لما رسمه له الإستعمار لا يهتم بالعظائم من الأمور ويحب الراحة والكسل ولا هم له فى دنياه إلا الحصول على الشهوات .. باركتكم المسيحية ورضى عنكم الاستعمار فاستمروا فى أداء رسالتكم.. لقد أصبحتم موضع بركات الرب.

هذه نماذج قليلة مما كان يقصده الآخر من حواره معنا فى مطلع هذا القرن، أما فى وقتنا هذا.

فمن المفيد أن ننبه هنا إلى أن أحداث عصرنا السياسية محكومة إلى حد كبير بمذاهب فلسفية ومنطلقات فكرية تنير لها طريقها نحو تحقيق أهدافها وبلوغ غايتها، والذى يتأمل خريطة العالم السياسية الآن لا يجد قوة عسكرية شرقاً أو غرباً، إلا وهى محكومة فى رسم سياستها بمذهب فكرى ومنطلق فلسفى يبرر لها سياستها فى شرق الكرة الأرضية طيلة هذا القرن وهى محكومة بمنطقها الفلسفى الذى جسدته الشيوعية على أرض الواقع التى احتلتها وجعلتها حقول تجارب للفلسفة الماركسية حتى خربتها وجعلتها أثراً بعد عين. ونفس السياسة قد انتهجتها أوروبا وأمريكا. وفى المستعمرات الخاصة لهما. أما الصهيونية العالمية وما فعلته على مستوى النظر والتطبيق فكان أخطر من هذا وذاك. ذلك أن أقطاب الفكر الصهيونى استطاعوا أن يتسللوا إلى مواقع التأثير فى اتخاذ القرار السياسى فى بلاد كثيرة من أقطار العالم وجعلوا من أصحاب القرارات أدوات ينفذون بها إدارة الصهيونية السياسية فى بلادهم حيناً بوسائل الترغيب وأحياناً كثيرة بوسائل القهر والترهيب.

ومن تصاريف الأقدار الغربية ـ وأنا أعد هذه الدراسة طالعتنا صحيفة الأهرام فى ١٩٩٦/٣/٢٧ فى المقال اليومى للأستاذ أحمد بهجت بعنوان «التاريخ المسافر» حيث كتب معلقاً على كتاب المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل للأستاذ محمد حسين هيكل استهله ببيت من الشعر لأحمد شوقى ينعى فيه سقوط الأندلس بقوله:

يا أخت أندلسى عليك سلام ∴ هوت الخلافة عنك والإسلام

ثم قال معلقاً على قول أمير الشعراء:

أدرك أحمد شوقي بحس الفنان العلاقة بين سقوط الخلافة العثمانية وسقوط الأندلس. وأن سقوط الخلافة العثمانية وسقوط الأندلس حين سقطت وأباد الغرب كل من كان فيها من المسلمين واليهود على سواء ثم أخذ يتساءل الأستاذ أحمد بهجت عن العلاقة بين كتاب المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل الذى كتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل وسقوط الخلافة العثمانية وسقوط الأندلس فيما مضى من التاريخ وسقوط القدس حاليا ليكتشف فى الإجابة عن سؤاله أن السبب في هذه الكوارث الثلاثة واحد ويجسده فى قوله هو الابتعاد عن روح الإسلام ومحاولة الاحتفاظ بشكله ومظهره والابتعاد عن روحه وجوهره. وهذا إنما تم وأصبح واقعا بسبب هجرة العقول من منطق الحكمة إلى فوضى الحماقة ومن التوحيد والتجمع إلى التمزق والتشرذم. وتفريط الملوك والحكام. وقهر الشعوب وحجب المعلومات الصحيحة عنها. والكذب عليها. والاتصال بالعدو بل والتحالف معه أحياناً. كل هذه الأسباب يعتبرها الأستاذ محمد حسنين هيكل فى كتابه كأسباب للكوارث الثلاثة التى حاقت بالأمة الإسلامية. سقوط الأندلس. سقوط الخلافة. سقوط القدس وكل هذه الكوارث إنما وقعت بناء على منهج مرسوم يتحاور الغرب من خلاله معنا لأنه عرف كيف يتعامل معنا وكيف فهمنا. وكيف فهمناه. كيف عاملنا. وكيف عاملناه على مستوى النظر والكلمة أولاً ثم على مستوى الاحتكاك والواقع العملى ثانياً. كيف تعامل معنا ومن أى مذهب فكرى وعقيدى كان ينطلق فى تعامله معنا؟ وكيف تعاملنا معه وما هو المنطق الفكرى والعقائدى فى تعاملنا معه؟ ولعل من المفيد أن نضع تحت يد القارىء الوثيقة التاريخية التالية لنابليون بونابرت التى كتبها فى شكل نداء موجه إلى يهود العالم حاثاً لهم على

إنتزاع أرض فلسطين من أيدى العرب تنفيذاً لفكر معين يؤمن به وفلسفة عنصرية يدين بها فى تعامله مع الشرق بدأها نايليون بقوله :

«من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية فى أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين».

أيها الإسرائيليون. أيها الشعب الفريد. التى لم تستطيع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه نسبه ووجوده القومي. وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط.

إن مراقى مصائر الشعوب الواعين المحايدين ـ وإن لم تكن لهم مقدرة الأنبياء مثل أشعياء ويوئيل ـ قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد اللّه (كلمة إسرائيل فى اللغة العبرية تعنى أسير اللّه أو عبد اللّه) سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون. وسوف تعمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف.

أنهضوا بقوة أيها المشردون فى التيه. إن أمامكم حرباً مهولة يخوضها شعبكم بعد أن اعتبر أعداؤه أن أرضه التى ورثها من الأجداد غنيمه تقسم بينهم حسب أهوائهم.. لا بد من نسيان ذلك العار الذى أوقعكم تحت نير العبودية. وذلك الخزى الذى شل إرادتكم لألفى سنة. إن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها. بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالقسر على التخلى عن حقكم. ولهذا فإن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل. وهى تفعل ذلك فى هذا الوقت بالذات. وبالرغم من شواهد اليأس والعجز.

إن الجيش الذى أرسلتنى العناية الإلهية به. ويمشى بالنصر أمامه وبالعدل وراءه، قد اختار القدس مقراً لقيادته. وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التى استهانت طويلاً بمدينة داود وأذلتها .

يا ورثة فلسطين الشرعيين

إن الأمة الفرنسية التى لا تتاجر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها. تدعوكم إلى أرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء.

أنهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوى شرفاً لأسبرطة وروما. وأن معاملة العبيد التى طالت ألفى سنة لم تفلح فى قتل هذه الشجاعة.

سارعوا إن هذه هى اللحظة المناسبة ـ التى قد لا تتكرر لألاف السنين ـ للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم. تلك الحقوق التى سلبت منكم لآلاف السنين وهى وجودكم السياسى كأمة بين الأمم. وحقكم الطبيعى المطلق فى عبادة إلهكم يهواه. طبقاً لعقيدتكم. وافعلوا ذلك فى العلن وافعلوه إلى الأبد.

التوقيع بونابرت

هذا ما صرح به نابليون فى توضيح أهدافه من حملته على مصر والشرق عموماً وعليك أن تضع أمامك النصوص الثلاثة السابقة التى صرح بها هانوتو. وزويمر. ونابليون لنضع النقاط على الحروف بصدق وأمانة ونعرف أنفسنا بأنفسنا ماذا يريد الغرب منا. ونتعرف على وسائله فى تنفيذ سياسته فى بلادنا.

أن لغة الآخر فى الحوار معنا أصبحت مفروضة علينا ولا اختيار لنا فيها، لأننا قد وقعنا فريسة لمجموعة من المفاهيم والقيم التى نجح الآخر فى حملنا عليها وفرضها علينا خلال كثير من المؤسسات الثقافية والإعلامية التى وظفها أصلاً لهذا الغرض.

لقد ركز الآخر فى حواره معنا على قطع السياق التاريخى لأمتنا بين ماضيها وحاضرها وذلك حين أخذت سيطرة الغرب على البلاد الإسلامية أبعاداً أخرى تتجاوز فى أهدافها ومقاصدها مجرد السيطرة العسكرية والسياسية والاقتصادية، لقد حاولت أوروبا أن تحمل شعوب البلاد التى احتلتها على أنماط اجتماعية ورؤى حضارية وثقافية تختلف فى أسلوبها وأهدافها على الأنماط الاجتماعية والحضارية التى كانت سائدة فى هذه البلاد مما جعل كثيراً من هذه البلاد تسير فى فلك النمط الأوروبى فكراً وثقافة مما حكم على هذه البلاد بالتبعية المطلقة فى توجهاتها الثقافية والحضارية وهذا بالتالى قد أفقدها هويتها وانتمائها وقتل فى نفسية شعوبها الاحساس بالخصوصية الإسلامية والذاتية العربية وجعلت من أوروبا القبلة التى ينبغى أن تحج إليها طلال الحضارة والمدنية وأصبح النموذج الأوربى هو المثل الذى يتطلع الكل إلى تقليده بدعوى التنوير والتقدم ونشأ فى عالمنا العربى حركة ثقافية تدعوا إلى التغريب فكراً وثقافة وحضارة حتى تنهض كما نهضوا أسوة بالغرب فى سيرتها الحضارية ولكى تستقيم سيرتنا إلى الأمام ـ حسب زعمهم ـ لا بد من قطع الصلة بالماضى وتاريخه وقيمه وأدبياته.

ومن الجدير بالإشارة هنا أن عصر النهضة فى أوروبا بدأ بثورته على الكنيسة وتفسيراتها الخرافية للظواهر الطبيعية ولقد أفرزت هذه الثورة

العلمية على الكنيسة نزعة الحادية عامة شملت معظم دول أوروبا ووجدت هذه النزعة الإلحادية من يتبنى الدعوة إليها وأصبح مناهضة التدين ومحاربة المقدسات الدينية التى تجسدت فى مواقع الكنيسة إحدى مظاهر التنوير والتقدمية فى أوروبا ولقد صاحبت هذه النزعة الإلحادية حركات الاستعمار الأوربى للبلاد الإسلامية وأعلت هذه النزعة الإلحادية عن نفسها احيانا بالأسلوب الصريح وأحياناً بالإشارة والتلميح وجندت لذلك بعض الأقلام فى البلاد العربية التى خلطت الأوراق ولم تفرق بين ماهو إسلامى وما هو كنسي.

ولا بين ما هو عربى وما هو أوروبى فى كل شيء حتى فى العادات والتقاليد والمفاهيم الاجتماعية وربما كان حرصهم على محو هذه الخصوصية الإسلامية أكثر الحاحا لأنها هى التى تشكل البنية الإنسانية وترسم لها ميولها ورغباتها وتشحذ وجدانها نحو الأهداف والمقاصد التى تريدها وكان من أبرز هذه المقاصد المطلوبة هو قطع النسق التاريخى للأمة الإسلامية ومحاولة قطع الصلة بين الحاضر والماضى فصوروا الماضى على أنه كله تخلف ورجعية ينبغى التخلص منه وصوروا نهضة أوروبا على أنها الخلاص والملاذ الذى ينبغى أن نسارع باللحاق به وأنها الكعبة التى ينبغى أن نحج إليها.

وهذه المحاولات ربما كانت أخطر المحاولات التى جرت فى مطلع هذا القرن ولا زالت إلى الآن بقصد قطع النسق التاريخى لهذه الأمة ومحاولة فصل حاضرها عن ماضيها وسخرت لهذه القضية أجهزة إعلامية ومؤسسات ثقافية استخدمت فى سبيل الدعوة لهذه القضية كل وسائل الإرهاب الفكرى بل والأمنى فى كثير من الأحوال.

لقد نجح الغرب إلى حد كبير فى نقل المعركة التى قامت بين الكنيسة والعلم فى أوروبا إلى بلاد المسلمين. ونجحوا فى تصوير الدين بأنه يناهض العقل ويحارب العلم وأنه لا يمكن لهما أن يلتقيا أبداً فأما العلم والأخذ بمنطقه ومنهجه للتقدم وإما الأخذ بمنطق الدين وحينئذ فلا أمل فى النهوض والتقدم وهذا المنطق المعكوس إذ كان له ما يبرره فى أوروبا فليس له ما يبرره أبداً فى منطق الإسلام. ذلك أن الإسلام ليس هو الكنيسة فى عصرها المظلم. وليس الذين يتبنون هذه الفرية الظالمة فى بلادنا هم بالعلماء العلميين وهذه المعركة الزائفة والمفتعلة بين المتحاورين فى جانب الفكر الإسلامى من جانب ودعاة التنوير والتقدمية من جانب آخر ليس لها ما يبررها فى أرض الواقع إسلامياً ولا تاريخياً، فلم يكن الإسلام يوماً ما رافضاً للعلم ولا للتنوير ولا للتقدم. ولم يكن مفكروا الإسلام والمسلمون كذلك أبداً. لأن العلم الصحيح فى نظر الإسلام عبادة دينية. ولكن السؤال الموجه إلى هؤلاء السادة. ما هو التنوير المطلوب لتقدم الشعوب ونهضتها وما هو التقدم المنشود، من الذى يجرؤ على القول بأن الإسلام يرفض العلم ويحارب العقلانية والعلم الصحيح فى نظر الإسلام دين وعقيدة طلبه عبادة وفريضة والأخذ بمنهجه دين وشريعة ومن الذى يجرؤ على القول بأن مفكرى الإسلام يحاربون العقل ويرفضون العقلانية والإسلام إنما نزل ليخاطب العقلاء ويجعل التفكير العقلى الصحيح فريضة إسلامية، لقد استطاع الغرب فى مرحلة تاريخية معينة أن يطرح مفاهيمه التى خرج بها من معركته مع الكنيسة على بلاد المسلمين وهى كلها مفاهيم رافضة للتسلط الكنسى باسم الدين وسحبوا هذا الرفض للكنيسة على الدين بمفهومه العام ونقلوا هذا المفهوم بملابساته إلى بلادنا وجندو فى بلاد المسلمين من تبنى

هذه الدعوى ودعا إليها وأصبح كل مفكر إسلامى فى نظر هؤلاء رمزا للرجعية والظلام والتخلف ولا أدرى كيف غاب عن هؤلاء أن الإسلام ليس هو الكنيسة، وأنهم هم أنفسهم ليسوا نيوتن، ولا جاليليو، ولا بيكون ، وإنما ينتمون بفكرهم ونشاطهم وتخصصهم إلى مجالات أخرى لا علاقة لها بحقل العلوم التى حمل لواءها علماء المسلمين منذ عدة قرون فنوروا بها أوروبا نفسها وأخرجوها من كهف التخلف إلى عصر النهضة التى نعيشها الآن:

إننا فى حاجة ماسة أيها السادة إلى توضيح هذه المفاهيم التى لاكتها الآلسن وسودت بها الصحائف فى عصرنا هذا فنعرف الشباب ما هو التنوير الذى ننشده لأمتنا. وهل هذا التنوير يتناقض مع منطلق الإسلام حتى يصورهما البعض على أنهما متناقضتين لا يجتمعان أبدا. وما هو التقدم الذى نأمله وما هى النهضة التى نفتقدها هل هى كامنة فى علاقتنا بالله أم أنها تركز أساسا فى علاقتنا بالأشياء وظواهر الكون ولغة العلم المفقود. أن أصحاب النظرية العلمية التى غيرت وجه التاريخ لم يكتشفوها من منطلق كفرهم بالخالق، ولا لأنهم ينكرون الغيبيات ويكفرون بها ولم يقولوا أبدا أن هذه الاكتشافات كان سببها رفضهم للإيمان وإنكارهم الاعتقاد فى الله وإنما كان ذلك نتيجة طبيعية لأخذهم بالأسباب العلمية التى حث عليها الإسلام وأهملها المسلمون/ فأخذوا بها وتركناها. فتقدموا وتأخرنا، ونهضوا. وتخلفنا وهذه سنة من سنن الله فى كونه لا علاقة لها بدين الظالم ولا انتمائه الثقافى ولا جنسه ولا لونه فمن اكتشفها وأخذ بها حصل على نتائجها من التقدم والسبق الحضارى حتى ولو كان مكتشفها كافراً ولا يؤمن بالله ومن تقاعس عنها تأخر حتى ولو كان من أتقى عباد الله.

هـى سـنة اللّه فى كونه ولن تجد لسنة اللّه تبديلاً ، لقد دأبت بعض الأقـلام تصـوير علاقة العلم بالإسلام والمسلمين على أنها علاقة تناقض وأن العقلانية تتناقض مع الإسلام متأثرين فى ذلك بموقف العلماء فى أوروبا من الكنيسـة وخـرافاتها ومـتأثرين فـى ذلك أيضاً بموقف بعض المستشرقين من الإسـلام الذيـن لم يفـرقوا فـى كـتاباتهم بـين الإسـلام وغـيره مـن الأديـان الأخـري. وأظهـر مـا يكـون ذلـك وضوحاً فى صفوف المشتغلين بالدراسات الفلسفية والأدبية فى العصر الحديث.

وباللّه التوفيق